بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يسرك وعونك

هذا الكتاب "موسى والتوحيد" كتبه سيجموند فرويد فى أواخر حياته، وجمع فيه كل خبرته ومعرفته فى مجال التحليل النفسى والأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والديانات المقارنة، وينتمى إلى المرحلة التى كانت فيها كتبه تتجه إلى التطبيق وليس التنظير.

وفرويد معروف فى الأوساط الأدبية والفنية، ومن تحصيل الحاصل لذلك أن أعرّف به القارئ، غير أن هناك أشياء لانعرفها عنه يقيناً، ولا يعرفها القارئ العربى بنوع خاص، **ومن ذلك هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء مترجماً إلى اللغة العربية، وفى اعتقادى أنه من أخطر الكتب التى ألفّها فرويد، ويتناول فيه بالشرح والتفسير معتقداتنا الدينية - سواء كنا مسلمين أو مسيحيين- ويطرح فيه مفهومه عن التوحيد، يحاول أن يتتبع أصوله ويردها إلى التطور الطبيعى لما يسميه الديانة الطوطمية، ويقول إن الديانة اليهودية ترجع أساساً إلى ديانة أخناتون، وأن النبى موسى ليس سوى أمير مصرى كان من أتباع أخناتون، فلما انقلب الشعب المصرى على أخناتون، رأى موسى أن يفر بدينه إلى بلاد أخرى، وبشّر الإسرائيليين فى مصر بمعتقداته فمالوا إليها، وعبر البحر إلى سيناء، وأعطاهم شريعة التوحيد.**

ويزعم فرويد أن اسم موسى من الأسماء المصرية وليس عبرياً كما يدّعى اليهود بمعنى لقيط الماء، وأن ابنة فرعون التى أعطته الاسم لم تكن تعرف العبرية حتى تعطيه اسما عبريا. وليست اللكنة التى كان عليها نطق موسى إلا لأنه لم يكن يعرف لغة الإسرائيليين فيستطيع أن يتفاهم معهم، فاستعان بهارون ليقوم بهذا الدور. ومن رأى فرويد أن الديانة اليهودية بتعبير الأنثروبولوجيين هى ديانة أب، فى حين أن المسيحية هى ديانة إبن، وأمّا الإسلام فهو صورة ضحلة من اليهودية.

وكان تأليف فرويد لهذا الكتاب أثناء اضطهاد النازى لليهود فى أوروبا، وقد أكمل

فرويد الجزء الأخير منه بعد هروبه إلى لندن. والجزء الأول يبدو فيه فرويد كما لو كان ملحداً وعلمانياً ومجرد دارس لليهودية، وفى الجزء الأخير يتحدث فرويد بإيمان شديد بالله ويدافع عن اليهودية فى استماتة ويستخدم كل أسلحة التحليل النفسى ليحقق الغاية التى ترسمّها مسبقاً بتأليفه لهذا الكتاب.

والكتاب يصدم القارئ المهتم بالتحليل النفسى والذى يأخذ به منهجا فى حياته. والواقع أن ماكان يساور البعض منا نحن المثقفين فى رحلتنا فى هذا المجال العلمى قد تأكد بهذا الكتاب، فلقد كان مما يدعو إلى التساؤل أن يكون كل التلاميذ والحواريين حول فرويد من اليهود إلا إرنست جونز الذى كتب تاريخ حياة فرويد وتاريخ حركة التحليل النفسى، وكارل يونج عالم النفس والفيلسوف. ومن هؤلاء إبراهام وأدلر وشتيكل وفيرينزى وريكلين وبلويلر وفوريل وأساجيولى وكريبلين وإيتنجتون ورانك وساخس وغيرهم. وكتب جونز معلقاً على ذلك بأنهم جميعا كانوا يهودا يحسون بيهوديتهم بشكل حاد، وكان إيتنجتون مثلاً من أشد هؤلاء الحواريين إحساساً بيهوديته لدرجة أنه عندما طرأ ببال هذه العصبة أن تهجر النمسا طرح فكرة الهجرة إلى فلسطين وظل يُرغِّب فرويد فى الهجرة إليها. وقال جونز عن نفسه إنه من طول مصاحبتهم حفظ عنهم قصصاً يهودية وأمثالاً ونكاتاً، وصار منهم ومعهم قلباً وقالباً. ولمس جونز إحساسهم المرهف بيهوديتهم وإحساس فرويد بها بنوع خاص.

وهذا الإحساس الحار بيهوديته هو الذى دفع فرويد إلى كتابة موسى والتوحيد، وكان هذا الإحساس نفسه يلوّن آراءه واتجاهاته وميوله الثقافية والسياسية والعلمية، حتى أن النقّاد لمّا عابوا عليه تخلف معلوماته العلمية وإصراره على الاستشهاد بأقوال لعلماء ونظريات عفا عليها الزمن كان يدافع عن نفسه بأن هذه الأقوال والنظريات تناسب معتقداته اليهودية أكثر من غيرها وتقدم البراهين على صدق مايذهب إليه. وكان فرويد مثلا يكره الاشتراكية لأنها لاتفرّق بين الناس ولاتقر بالامتياز العنصرى، وكان من غُلاة المؤمنين بالتفوق العنصرى. ويقول فرويد فى هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء : إن اليهود لديهم فكرة عالية عن أنفسهم، ويعتقدون أنهم أنبل من غيرهم وعلى مستوى أرفع، وأنهم أكثر تقدماً. ويمضى فيقول إن سبب هذا الاعتزاز هو تصديقهم لأنفسهم بأنهم شعب الله المختار.

ويصف جونز ميول فرويد الاجتماعية بأنها ليبرالية، وأنه كان يصوّت فى الانتخابات

إلى جانب الحزب الليبرالى. وكان فرويد ليبرالياً حقاً لأن الليبرالية فى زمنه كانت أنسب المناهج لاتجاهاته الذهنية، ولأنه لم يكن يجد فى الاتجاهات العقَدية فى زمنه مايمكن أن يوافق ميوله العنصرية اليهودية، هذه الميول التى تتضح بشكل سافر عندما نقرأ عن دائرة رفاقه وزوّاره وحواريّيه فى لندن بعد فيّنا، فقد كان هناك «**يهودا» المؤرخ البريطانى اليهودى، وستيفان زفايج الكاتب اليهودى، ومالينوفسكى عالم الأنثروبولوجيا اليهودى، وحاييم وايزمان الصهيونى وأول رئيس لإسرائيل**. وكان فرويد يباهى بيهوديته، ويكتب إلى المعهد العلمى اليهودى فى لندن يقول: إنى أعتز بيهوديتى (جونز ص ٦٥٠).

وهذا الاعتزاز اليهودى هو نفسه الذى جعله يكتب هذا الكتاب الخطير الذى بين أيدينا، وهو الذى جعله ينضم إلى جمعية بناى بريث، وهى من أكبر الجمعيات اليهودية انتشاراً فى العالم وأشدها غلواً فى الصهيونية. وقد التحق فرويد بالجمعية سنة ١٨٩٥، وظل عضواً بها إلى آخر يوم فى حياته. وكانت الجمعية معروفة بمعاداتها الأممية وتمارس نشاطاتها الاجتماعية والسياسية علناً وأحياناً سراً بحسب الأحوال والظروف.

وفى مارس سنة ١٩٣٨ قبض عليه النازى واستجوبوه لعضويته فى هذه الجمعية، وكان النازى قد أحرقوا كتبه كلها فى برلين فى مايو سنة ١٩٣٣، وسارع إيتنجتون زميله فى بناى بريث وفى جماعة التحليل النفسى إلى فلسطين فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٣ ليمهد للإقامة فيها، وبعدها بشهرين سافر إلى هناك للأبد وأسّس فى تل أبيب جمعية التحليل النفسى.

وإذا جاز لنا أن نستخدم نفس طرق التحليل النفسى على فرويد ونستعيد نظريته فى المكبوت وفى عودة المكبوت بتأثير المستحدث من الخبرات الصادمة، وما يمكن أن يدلنا عليه المكبوت من عوامل ومشاعر خبيئة تفصح عن المضمون الحقيقى من النوايا والمشاعر والرغبات، فإن لنا أن نستشهد بهذه الحادثة التى جرت وقائعها عام ١٩٣٨، ففى ١٣ مارس من تلك السنة عقدت جمعية التحليل النفسى اجتماعاً عاجلاً وقرر الأعضاء الفرار أمام النازية، وأعلنوا أن المقر الجديد لهم وللجمعية سيكون حتماً حيثما يوجد فرويد، وفوراً ارتفع صوت فرويد هادراً ودون تلعثم، وكأنه كان يتكلم من بطن التاريخ، أو كأن لاشعوره هو نفسه الذى كان يفصح عن نفسه، وقال : إنه بعد تحطيم المعبد فى أورشليم على يد

تيتوس طلب الحاخام يوحنان بن سكاى الإذن بفتح مدرسة فى يابنيه لتدريس التوراة والتعريف بها، ونحن سنفعل نفس الشئ، فنحن جميعا معتادون على الاضطهاد بحكم تاريخنا وتراثنا، وبعضنا بحكم تجاربنا الشخصية (جونز ص ٦٣٨).. فنرى هنا أن فرويد يعتبر التحليل النفسى كالتوراة تراثاً يهودياً، فإن كانوا قد أغلقوا معبده فى فيّنا مثلما فعلوا من قبل مع معبد اليهود فى أورشليم، فسيفتح مدرسة لتعليمه فى مكان آخر!

ولقد صدر فرويد- بمقارنته للتحليل النفسى باليهودية واعتباره التحليل النفسى كتراث يهودى خالص- عن حقيقة نواياه العلمية، وكان فى ذلك كمن يكشف نفسه ورغباته وأمانيه من خلال مايطلقه من النكات والكلمات التلقائية، فتدل على المستور من أفكاره. وكتابه **موسى والتوحيد** من ذلك، وهو فيه أبعد مايكون عن تناول سيرة هذا النبى ومناقشة التوحيد، ولكنه يناقش دعاوى يهودية وصهيونية خالصة، ويروّج لليهود كشعب بدعوى عظمتهم التى يستقونها من عظمة نبيهم موسى، وعظمة إلههم الذى اختصوه بالعبادة فاختصهم بالتوحيد واختارهم كشعب له. ويقول فرويد إن اليهود هم الشعب الوحيد الذى مايزال يوجد اسماً وربما طبيعةً من بين كل الشعوب التى عاشت فى الزمن القديم فى حوض البحر الأبيض، وأنهم الشعب الوحيد الذى قاوم الاختلاط بغيرهم من الشعوب، وأنهم بتصديقهم أنهم شعب الله المختار يؤمنون بأنهم أبناء الله المفضلون الذين اصطفاهم وآثرهم على غيرهم بمحبته، وأن غيرهم من الشعوب يغارون منهم لأنهم الوحيدون الذين عرفوا الله وقدّسوه وجعلوا من توحيده تطوراً روحياً سامقاً بلغته الإنسانية بهم، وماكان من الممكن أن تبلغه بدونهم.

والكتاب فى نظرى هو خير مايمكن أن يُسهم به فرويد فى خدمة اليهود والقضية الصهيونية. ومن طريف مايشتمل عليه الكتاب أنه يردد التهجم على الإسلام الذى قال به المستشرقون اليهود من قبله وتولى الرد عليهم المرحوم العقاد والإمام محمد عبده وجمال الدين الأفغانى، وقد فضحوا مقاصدهم وحللوا نواياهم.

والكتاب يعد وسيلة رديئة من وسائل تطبيق نتائج التحليل النفسى على القضايا الكبرى والشخصيات العظيمة. وقد سبق لفرويد أن مارس ذلك فى كتابه عن **ليوناردو دافنشى** وقمنا بترجمته. وهذا الكتاب تظهر فيه نيّة فرويد السيئة بتعبير الوجوديين، بالنظر إلى مايهدف إليه به من مقاصد عنصرية. وهو أيضا سبّة تاريخية وإهانة لكتابة التاريخ من

وجهة نظر نفسية، ثم هو كشف لعالم كَثُر الحديث عنه بين المثقفين وفى أبهاء الجامعات. ولقد سبق أن طلب المعهد العلمى اليهودى فى لندن من فرويد عدم نشر الكتاب لأنه سيفضح النوايا اليهودية الصهيونية، ولكنه رفض معلّلا بعلل فكرية، وكأنما هو يعتز بكنز ثمين قد اختُص به وحده، ورفض أن يترك الدنيا إلا والكتاب منشور، وكأنما هو يرفض وداع الناس له من مسيحيين ومسلمين إلا بعد أن يعلن رأيه فيهم بكتابه هذا الذى يصفه ساخس بأنه وداع يستحق!! (جونز ص ٦٥٤).

✠ ✠ ✠

وكنت أحب أن استطرد فى ذكر أسماء اليهود من العلماء الكبار الذين تطفح صحافتنا بالإشادة بهم، والذين أرسلوا إلى فرويد مهللين للكتاب باعتباره باقة ورد وقصيدة مدح وأغنية حلوة تتغنى باليهودية وتشيد بها وتلهج بذكرها، ولأنه كذلك طلقة مسددّة إلى قلوب أعدائها المسيحيين خصوصا. ومن هؤلاء **إينشتاين** عالم النسبية الذى كان يطوف بالولايات المتحدة ليجمع التبرعات لإسرائيل سنة ١٩٤٨، والذى ظل يتحدث فى إذاعات أمريكا مدة أربع سنوات داعياً إلى فكرة الصهيونية، وركب القطار قاطعاً المسافة عبر الولايات المتحدة ليجمع التبرعات والتأييد لإسرائيل، ملقياً الخطب ومؤثراً فى سياسة امريكا الخارجية وضاغطاً على رؤسائها كى يساعدوا إسرائيل، حتى رأى قومه أن يعرضوا عليه رئاسة دولتها بعد وفاة حاييم وايزمان. وليس بمستغرب أن يبدى إينشتاين إعجابه بنظرية الكبت وعودة المكبوت التى قال بها فرويد والتى تمثل فى فلسفته حجر الرحى، وأرسل إليه فى إبريل سنة ١٩٣٦ خطابه المشهور حولها. ثم ليس بمستغرب أن يفصح فرويد له ولغيره عن شعوره الدينى وامتلائه بالتراث اليهودى رغم تبجحه بالإلحاد وتظاهره به، إلا أن سقطات لسانه كانت تكشف عما فى أعماقه، فكان يشبّه نفسه مرة **بيوسف عليه السلام**، ومرة **بموسى عليه السلام**، والأول لأنه اشتهر بتفسيره للأحلام فكان فرويد يقارن نفسه به بالنظر إلى أنه صاحب نظرية فى الأحلام وأن أكبر كتبه شأناً هو كتابه **تفسير الأحلام**؛ والثانى لأنه رسول اليهودية مقارناً بفرويد **رسول العلاج النفسى التحليلى**. وكان فرويد يرى فى يونج ماكان موسى يراه فى يشوع، فموسى رأى الأرض الموعودة ولكنه لم يرتدها، ويشوع هو الذى ارتادها، وكان فرويد يطمع أن يخلفه يونج على حركة التحليل النفسى وينشرها من بعده كفعل يشوع فى

اليهودية، أو كفعل بولس الرسول فى المسيحية، وكان بولس يهودياً فى الأصل اسمه شاول وخرج بالمسيحية من نطاق الشعب اليهودى إلى العالمية.

✠ ✠ ✠

والحديث عن فرويد يجرنا حتماً إلى قضايا كثيرة مشابهة لمفكرين كبار من أمثال **أرثر ميللر وتوماس مان وفرانز كافكا وجيمس جويس** وغيرهم. وماكان يمكن أن نتقوّل عليهم لولا إصرارهم على يهوديتهم وكتاباتهم عن اليهود وإعلاؤهم لشأن اليهودية على غيرها من الديانات.

وكان الناس فى أمريكا وغيرها ينظرون إلى **ميللر** ككاتب يسارى، شأنه فى ذلك كبريخت مثلا. وميللر اتُهم يوما من قِبَل لجنة مكارثى بالتعاون مع الشيوعيين ضد الثقافة الأمريكية. ولم يعرف أحد أنه يهودى إلا عندما تزوج من مارلين مونرو الممثلة المعروفة، فأصر على أن يعيد زواجه فى المعبد اليهودى، وعندئذ بان أنه يهودى. وعندما استجوبوه أمام لجنة الكونجرس فى ٢١ يونيو سنة ١٩٥٦ أقر أنه لم يدرج اسمه قط ضمن أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى، وأنه رفض محاولات الحزب استدراجه إلى صفوفه. وعند ذلك فقط أدرك خصومه وأصدقاؤه التكتيك الذى اتبعه لينال الشهرة والحظوة، فلقد كان يُظهر بين اليهود أنه يهودى، وبين غير اليهود أنه يسارى. وكانت اليهودية فى زمنه وفى غير زمنه انحيازاً عنصرياً، بينما كانت آراؤه المعلنة يسارية أو ليبرالية على أقل تقدير مثل فرويد. وعندما وثّق ميللر زواجة أمام الحاخام عرف الناس أنه شديد التدين بل ومتزمت. ويصف **دنيس ويلاند** فى كتابه عنه ص ١١ حقيقة وضعه فيقول : إن ماثيو أرنولد لو قدّر له أن يفسر التعليمية التى عليها كتاباته لوصفها بأنها دليل على العبرانية أكثر منها سمة من سمات الهيلينية»، ولذلك فقد كرّمته الجامعة العبرية فى أورشليم سنة ١٩٥٩ ومنحته وسامها.

ويجمع النقاد على أن مسرحية **مشهد من الجسر** بمثابة التحليل النفسى لحياته الخاصة، وفيها يعرب عن رغبته فى التوفيق بين اعتناقه الليبرالية وبين حياته التى يعيشها فى مجتمع رأسمالى، وبين يهوديته وبين المجتمع المسيحى الأمريكى، وبين صهيونيته وبين ولائه لأمريكا، ولذلك يقول إنه يدعو إلى أن يكون النموذج الذى يتعايش فيه الناس هو نموذج المدينة polis بالمعنى اليونانى القديم الذى كانت فيه كل مدينة تعيش مستقلة

داخل المجتمع الأكبر، باعتبارها وحدة داخل الكل. وكانت المدينة أيام اليونان القدامى تنظيماً قبلياً يعرف فيه أفراده بعضهم البعض شخصياً، لأنهم محدودون عددياً، ويدركون أنهم لن يتحقق لهم النجاح كأفراد إلا بنجاح المدينة ككل، وأن المدينة لن تنجح كوحدة إلا بنجاح المجتمع الأكبر ككل. وفى سنة ١٩٥١ نُشرت لميللر قصة قصيرة بعنوان It Takes a Thief عن صديقين، أحدهما أبيللو **إيطالى أمريكى**، والآخر برنشتاين **يهودى أمريكى**، وكان أبيللو يبحث عن أجداده الإيطاليين فى إيطاليا برفقة برنشتاين. ولم يكن برنشتاين يساعده إلاّ لانبهاره بمشروعه ونبالة قصده حيث كان يبحث عن جذوره، وبرنشتاين فى صميمه يريد أن يكون له هو نفسه هذا المسعى كذلك. ويدلف الصديقان إلى مطعم، ويقدم رجل عجوز ليجلس واضعاً أمامه لفافة هدوم، وعندما يهم مغادراً يصيح برنشتاين اليهودى : أبيللو .. هذا العجوز يهودى!». ويصف ميللر صوته فيقول : خرجت الكلمات من فمه وفيها رنة انتصار، معبرة عن ثقة لم تكن فيه، وتعالٍ بدأ يظهر على ملامحه وفى صوته كما لو كان هو ولأول مرة الذى يقوم بالبحث عن أصوله، وكما لو كان قد عثر على دليل وإشارة عليهم.

واستدار أبيللو صديقه ناحية العجوز يتأمله وسأله : لكن لماذا؟ وقال برنشتاين: الطريقة التى يلف بها اللفافة!! إنها نفس الطريقة التى يلف بها أبى اللفافة، وجدى .. لاأحد آخر يمكن أن يكون رقيقاً وحانياً على اللفائف! إنه يهودى يلف لفافته ياأبيللو!!

ويقول ميللر إن أبيللو المهاجر الإيطالى يعثر على "مدينته" فى إيطاليا، ويحس فيها بالانتماء، وبرنشتاين اليهودى له أيضا مدينته التى يستشعر فيها بالانتماء، وهى أيضا حيثما يجتمع بغيره من اليهود!

وميللر فى **مشهد من الجسر** يستشعر أنه حتى الآن قد خان يهوديته، ولذلك فهو لن يكتب ابتداء من ذلك إلا عن أبطال يهود بمفهوم يهودى. وهذا هو المفهوم الجديد للدراما الذى أخذ يروّج له فى مقال بعنوان «**حول المسرحيات الاجتماعية**" مبرراً كتابته عن خصوصيات يهودية من غير أن يهاجمه النقاد، بدعوى أن اليهود واليهودية وحدات أو مدن تضمها الوحدات الأكبر التى يتألف منها المجتمع الأمريكى ككل بل المجتمع العالمى، وأنه لاتعارض فى خدمة السيدين : الجماعة اليهودية والجماعة الإمريكية، أو إسرائيل وأمريكا، فاليهود وحدة داخل المجتمع المسيحى، وإسرائيل وحدة أو مدينة تتبع الدولة الأمريكية.

وقضية **فرانز كافكا** مَثَل آخر على تضامن اليهود مع بعضهم، وإحساسهم اليهودى الحاد، ودعايتهم التى يتوخون بها إعلاء شأن اليهود أينما كانوا، ومايمكن أن تروّج له اليهودية العالمية من طرز أدبية، فاليهودية العالمية بمثابة كرستيان ديور الأدب العالمى التى تملى اختياراتها على دور النشر والصحف تبعاً للمصالح العليا اليهودية، فيأخذ النقاد هذه الاختيارات بترحاب أحياناً، وببعض الرفض أحياناً، ولكنه على أى حال الرفض الذى يسمح بدخول النمط الأدبى ساحة الأدب العالمى فيُعترف به عالمياً.

وفى قضية **فرانز كافكا** نجد الناقد اليهودى **ماكس برود** يكتب عن كافكا حتى قبل أن تظهر لكافكا قصص فى الصحف اليومية، ويختار كافكا كأحسن القصاصين، حتى من قبل أن ينشر له أحد ولايسمع به، تماما كما حدث مع الشاعر الإسرائيلى **عجنون** الذى لم يسمع به أحد حتى فى إسرائيل نفسها، ومع ذلك منحته لجنة نوبل جائزتها بضغوط من اليهودية أو الصهيونية العالمية. ولجنة نوبل هذه لاينبغى أبدا أن نصدق دوماً أن اختياراتها أفضل الاختيارات، وتفسيرها للأفضل هو تفسير سياسى فى المقام الأول، وفى رأيى أنها لم تختر نجيب محفوظ لروايته **أولاد حارتنا** إلا لأن هذه الرواية تسخر من الأديان وتستهزئ بالأنبياء وتعطى تفسيرات مادية للإلهيات أو الميتافيزيقيات التى هى وراء الطبيعة أو أعلى من الماديات، وذلك شئ تتوخاه اليهودية العالمية، وتوخاه فرويد فى كتابه موسى والتوحيد، ففرويد أو غيره من اليهود يظهر أنه علمانى وموضوعى ويتصدى للظاهرة الدينية تصدى العلماء الموضوعيين، ولكنه فى نفسه يضمر الإيمان كل الإيمان باليهودية وبإله اليهود وبموسى. وكان ذلك نفسه شأن كافكا وتوماس مان وغيرهما كثيرون، ومع ذلك يشجعون غيرهم على الإلحاد وانتقاد دياناتهم ومعتقداتهم. ومن الجدير أن كافكا عاش ومات ولم تنشر له قصص إلا أجزاء لم تكتمل، واختلف الناشرون حول ترتيب أبوابها، ومع ذلك ظلت دور النشر اليهودية تروّج لها وله حتى وقع المثقفون فى أحابيلهم فاحتفوا بها وبه كأنماط أدبية عالمية.

ومن أغرب القضايا الأدبية التى روّجت لها الدعاية اليهودية التفسيرات التى دارت حول كتب كافكا. وكافكا فى قصصه يضفى عليها معان صوفية، وكان فى حياته كالأحبار، شديد التدين والزهد، ويقرأ باللغة العبرية ويؤم المحاضرات عن التالمود(كتاب اليهود الثانى بعد التوراة) فى المدرسة اليهودية العليا فى براغ (Charles Osborne : Kafka p.13)

ولم يكن يزامل أو يكتب أو يعاشر إلا اليهود، وكانت كتاباته التأملية ثانوية، وقصصه التامة قصيرة التركيب وهشة البناء، ومع ذلك نال شهرة واسعة بسبب الدعاية، وبسبب أبطاله اليهود وموضوعاته اليهودية التى يستقيها من التوراة. هكذا كانت قصته «وصف صراع» حول مفهوم الحكمة والاستقرار، وقصته «المحاكمة» عن فقدان الإيمان بالدين، وقصته «تحول» حلم مزعج عن الإنسانية شبيه بقصة النبى أيوب. وكلها تقريبا قصص عن مفاهيم يهودية طرحها كالكتابات الصوفية فقد كان عضواً هو نفسه فى الطريقة الحسيدية الصوفية (أنظر كتابنا الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية وصحيح التسمية هو الحصيدية)، وكان أيضا عضوا فى الحركة الصهيونية وكان دخوله فيها عن طريق ماكس برود ودورينمات. ومع ذلك لم نعدم من تصدى بالترجمة لهذه الكتب وبالإشادة بكافكا بوصفه من عظماء الأدب العالمى.

✠ ✠ ✠

ولعل استاذ الانتهازية اليهودية الذى لايبارى هو **توماس مان**. والحديث فى جدارة مان واستحقاقه لجائزة نوبل لاينتهى، وقصة عزفه على وترين، الألمانى والأمريكى قصة مبتذلة، وحكاية تأييده للأحزاب اليمينة ثم تخليه عنها، ومهاجمته لأوروبا ثم ارتداده إليها، ومقالاته عن الصهيونية وإسرائيل والتضامن اليهودى، أمور يعرفها القاصى والدانى. والأهم من ذلك كله المَلَكَة الأدبية التى كان يتشدّق بها النقاد اليهود والتى لم يستطيعوا أن يثبتوها ولم يؤيدهم عليها النقاد المسيحيون، فقصصه ركيكة ومهلهلة، ومع ذلك ولأنه يهودى وانتهازى نشيط استطاع أن يفرض نمطه الأدبى على دنيا الأدب بفضل دعاية الصحف والإذاعات اليهودية (Andrew White : Thomas Mann p. 82)

✠ ✠ ✠

ولعل صنو **مان** فيما اختطه لحياته الأدبيه والفكرية هو الكاتب والفيلسوف **هيربرت ماركس** Marcus الذى أقام لنفسه مركزاً وسطاً بين كل الفلسفات، ينقدها جميعا، ويأخذ منها جميعا، ويكسب المال والشهرة، ويدعو لنفسه ولإسرائيل، ويحاول أن يغالط بموقف وسط بين العرب وإسرائيل ولكنه الوسط الذى يعطى إسرائيل ويضع العرب ضمن النفوذ الإسرائيلى.

✠ ✠ ✠

ولم يكن جواز المرور لمن ذكرنا ولمن لم نذكر من أهل الفكر اليهود، هو فكرهم ولكنه

يهوديتهم، أو قل إنه كثير من اليهودية المتزمتة وقليل من الفكر الأصيل، ومن أجل ذلك نالت قصة يوليسيس لچيمس چويس الشهرة والمجد رغم أن چويس مسيحى، لأنه كان فقط متعاطفاً مع اليهود وبسبب شخصية «بلوم» اليهودى المجرى المهاجر إلى أيرلنده، والمنفصل عن قومه، والمنعزل عن أسرته، فروّجت دور النشر اليهودية والنقاد اليهود للقصة. وفى يوليسيس يطرح چويس كل أزمة العصر كما يقولون، فالناس ينشأون فى المدن وليس بينهم إلا السعى وراء الكسب، وحياتهم فيها كأنهم جُزر معزولة عن بعضها البعض. وبلوم فى القصة يعيش العزلة مضاعفة، بل عزلة مضاعفة مرات ثلاث، مرة بالميلاد بعيداً عن إسرائيل الوطن الأم حيث اليهود قومه، ومرة فى عزلة عن أسرته وبيته حيث هجرته زوجته وأحبّت غيره وهربت ابنته ومات ابنه وانتحر أبوه، ومرة وهو يعيش حياته اليومية ويُركل وتساء معاملته لأنه يهودى، وتُفرض عليه الوحدة. ومع ذلك فبلوم يصوره چويس ممتلكا لفضائل أخلاقية كالتى يصفها أو يدعّيها فرويد لليهود عموما. وفى رأى چويس أن فضائل اليهودى بلوم هى التى تباعد بينه وبين الناس مرة أخرى، فهو عطوف وحليم وشجاع وعادل ومتسامح، وهو دائما يلقى بحبال المودة إلى الناس، إلى الجُزر الأخرى ليصل مابينه وبينهم، ولكنهم يقطعون حباله فيصرخ : لافائدة – القوة والكراهية هى التاريخ! هذه ليست حياة تصلح للرجال والنساء – حياة ملؤها الإهانة والكراهية!!! وكل واحد يعرف أن الحياة الحقيقية هى العكس!». ويدافع بلوم عن نفسه فيقول بالفم الملآن لخصومه زاعقاً صارخاً «المسيح الذى تحبونه وتتعبدون له يهودى!». ويقف بلوم هو نفسه أثناء ذلك مماثلاً نفسه للمسيح الذى ينسبه لجنسه، وكأنما هو نفسه مصلوب : إيلى! إيلى!، يعنى ياالله! ياالله!. وكأن چويس يريد أن يقول إن مسيح القرن العشرين هو اليهودى. ومن أجل ذلك عمّدوا چويس ضمن اليهود، وروّجت له اليهودية، ولاقت كتبه التأييد، وكان چويس يدرّس فى جامعاتنا المصرية كواحد من أعظم الروائيين فى القرن العشرين!

✠ ✠ ✠

وفرويد الذى نقدم له هذا الكتاب الخطير كان التحليل النفسى إنجازه الكبير، وهو حركة فكرية تاريخية شبه دينية تقوم على النظرية السيكولوجية حاول به التنظير لأخلاق دنيوية علمانية متحررة هى فى جوهرها الدين اليهودى، فمفهومه عن التسامى يقوم على فكرة الصفوة وشعب الله المختار فى مقابل العامة والأمم، وبالتسامى تستطيع الصفوة عن

طريق عدم إشباع الغرائز أن توفر رأس المال النفسي من أجل تحقيق الإنجازات الثقافية.

ومن رأى فرويد فى كتابه **موسى والتوحيد** أن اليهود استطاعوا مالم يستطعه الأوائل، فهم أول شعب تسامى بالغرائز وحلّق بالتوحيد إلى السوامق. ونظرية فرويد فى الثقافة نظرية يصفها هو بأنها نتاج الروحانية اليهودية، إلاّ أنها فى الحقيقة نظرية يهودية مادية تعلّمها من التوراة مثلما تعلّم أن الإنسان حيوان عدوانى. وفرويد ابن أمّته وصنيعة التوراة، وهو قد تعلم من التوراة أن الإنسان آلة يسوقها اللبيدو، وهو عنده كما عند معظم المفكرين اليهود حيوان اجتماعى يعاشر الآخرين لحاجته إليهم تبادلياً فقط، ولذلك هو يسخر من وصية المسيح التى تقول أَحْبِبْ جارك كما تحب نفسك، لأنه كما يقول إذا منح حبه للمحيطين به فإنهم سيعتبرون هذا الحب امتيازا اختصهم به، ومن غير المعقول أن يضع الغريب فى مكانة من نفسه تتميز عليه هو نفسه، ثم إنه لو عمل بهذه الوصية وأحب الناس ووزع طاقته على الحب عليهم جميعاً فلن ينال أحدهم عملياً شيئاً من هذا الحب بعد أن يتوزع على كل سكان الكرة الأرضية!! ولاأرى فى حديث فرويد ذاك عن الحب إلا أنه حديث يهودى يتحدث عن الملكية أو رأس المال، ولذلك نراه يستخدم نفس الحجة ضد الاشتراكية فيقول إن الرأسماليين لو وزّعوا ملكيتهم على الفقراء فى العالم كله فلن ينال الفقراء عمليا شيئا، ومن أجل ذلك وصف الاشتراكية بأنها يوتوبيا أى مذهب حالم. ومن الغريب أن فرويد يُكثر فى هذا الكتاب الذى قدّمه هنا من وصف اليهود بأنهم **شعب الله المختار** ويستند فى ذلك إلى التوراة، ولكنه فى الجزء الأول من الكتاب يفسر الاختيار على أنه اختيار موسى للإسرائيليين واختصاصهم بالدعوة بعد أن رفضها فرعون والمصريون، ثم فى الجزء الثانى يفسر الاختيار على أنهم صفوة العالَمين، ومع ذلك فإن التوراة التى ذكرتْ ذلك شرطت الاختيار بالإيمان فلما نفضوا عنهم الإيمان لعَنتهم التوراة أيضا حيث تقول : وقال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة، فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم (الخروج ٣٢ : ١ و١٠). وفى سفر العدد : وقال الرب لموسى حتى متى يهيننى هذا الشعب، وحتى متى لايصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم». «وكلّم الرب موسى وهارون قائلا حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة علىّ .. فى هذا القفر تسقط جثثكم .. لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة علىّ. فى هذا القفر يفنون، وفيه يموتون (العدد ١٤ : ٢٦ - ٣٥). «الرب تكافئون بهذا ياشعباً

غبياً غير حكيم .. نبحوا لأوثان ليست الله .. إنهم .. أولاد لا أمانة لهم .. أغاظونى بأباطيلهم .. قد اشتعلت نار غضبى .. سأجمع عليهم الشرور وأنفذ سهامى فيهم وأرسل فيهم أنياب الوحش وأبددهم إلى الزوايا وأبطل من الناس ذكرهم .. إنهم أمة عديمة الرأى ولابصيرة فيهم .. يوم هلاكهم قريب (التثنية ٣٢). «وكما فرح الرب لكم ليُحسن إليكم ويكثّركم، كذلك يفرح الرب لكم ليُفنيكم ويُهلككم فتُستأصلون من الأرض .. ويُبدّدكم الرب فى جميع الشعوب من أقصى الأرض إلى أقصاها. لاتطمئنون، ولايكون لأقدامكم استقرار، وترتعبون ليلاً ونهاراً، ولاتأمنون على حياتكم، ويردكم الله إلى مصر فتباعون هناك لأعدائكم عبيدا وإماءً (التثنية ٢٨:٢٨- ٦٨).

هؤلاء هم اليهود، وذاك هو قدرهم الذى يتساءل حوله فرويد فى كتابنا هذا الذى نعتبره من أخطر الكتب، فيقول : لماذا يكرههم الناس؟ أهى الغيْرة؟ هل ذلك لأنهم (كما يقول فيهم چويس) شعب متسامح وصبور ومثابر ومجتهد وجاد؟! وإذا كان فرويد يؤمن بالبشارة من التوراة بأن اليهود هم الصفوة فلماذا لايؤمن ببقية التوراة التى اقتبسنا منها من أسفار العدد والتثنية والخروج، بخلاف مايوجد فى الأسفار الأخرى كالملوك الثانى ١٧(٧-٢٣) و٢١(١-١٥) وإرميا ٧(٣٢-٣٤) و٩(١١و١٥و١٦) و٣٢(٣١-٣٥) وحزقيال ٣٢(٣-٧) واللاويون ٢٦(١-٣٩) ولوقا ٢٠(٩-١٩). ولم أشأ أن أرد على فرويد بالقرآن ولكنى آثرت الرد عليه من التوراة نفسها.

ويزعم فرويد فى هذا الكتاب الخطير موسى والتوحيد أن رسالة التوحيد اختص الله بها اليهود، ولم يوجد الشعب الذى وحّد الله كتوحيد اليهود لله، وهذا كذب وبهتان وزور لأن التوراة التى بشّرت بالله الواحد فقالت «الرب هو الله وليس آخر سواه (التثنية) «والرب هو الله وليس آخر» (الملوك الأول) هى نفسها التوراة التى قالت عن اليهود فى استقبالهم للبشارة بالتوحيد الإلهى «أيها العصاة اذكروا... أنى أنا الله وليس آخر» (إشعيا ٤٦)، «أغارونى بما ليس إلها. أغاظونى بأباطيلهم (التثنية)، «بمن تشبهوننى وتساوونى وتمثلوننى لنتشابه. اذكروا هذا وكونوا رجالاً. ردوه فى قلوبكم أيها العصاة» (إشعياء).

ويفسر فرويد الأسماء اليهودية لله تفسيرات عجيبة تخدم أغراضه، ويتحدث كثيراً عن أن الله هو إله اليهود وحدهم وقائدهم ومَلكهم ومشرّعهم، وأنه هو الذى وعظهم بالكمال وجعل عهداً بينه وبينهم علامته الختان، فيختن منهم كل ذكر فيكون العهد فى لحمه عهداً

أبدياً – وأقول لفرويد ولكن اليهود نكثوا العهد وكفروا بالله وبنعمه عليهم وعبدوا الأصنام والأوثان وآلهة الأشوريين والبابليين والكلدانيين والمصريين والحيثيين والكنعانيين والفينيقيين والأموريين والآراميين والفلسطينيين والأدوميين والموآبيين والعمونيين والفرزيين والحويين واليبوسيين والصيدونيين والعقرونيين، وعبدوا آلهة كوث وعوا وحماة وسفروايم وبنى سعير، ولما خضعوا لليونان والرومان عبدوا آلهتهم حتى قال فيهم إرميا النبى «بعدد مدنك صارت آلهتك يايهوذا. وبعدد شوارع أورشليم وضعتم مذابح للخزى. مذابح للتبخير للبعل (إرميا١١: ١٠-١٣). وعبد اليهود تموز إله الأرض الذى عرفه الفينيقيون باسم أدونيس وقالوا عنه أدونای، وكانت عبادته عند الساميين عموماً حتى أطلقوا اسمه على الشهر الرابع من السنة، وكانت تُرتكب فى معابدة طقوس داعرة، وتبكيه النساء كل سنة، وفعل اليهود ذلك فى عبادة تموز داخل هيكل أورشليم، كما عبدوا عشتاروت زوجة تموز وأخته فى نفس الوقت، وكانت عبادتها تتضمن طقوساً داعرة، وكاهناتها عاهرات، وأدخل الملك سليمان كما تقول التوراة عبادتها فى أورشليم أيضا. وعبدوا الإله بعل حتى بلغ الداعون لعبادته من أنبياء اليهود زمن الملك يربعام أربعمائة وخمسين، واعتقدوا أنه إله الشمس وكانوا يضحّون له ويرقصون حوله حتى إذا زاد تهيجهم طعنوا أنفسهم بالسيوف والرماح حتى تتفجر الدماء من أجسامهم.

فمن أين لفرويد بهذا التباهى بالتوحيد اليهودى؟ ومن أين استقى معلوماته الدينية إن لم يستقيها من التوراة؟ أغلب الظن أنه لم يتمعّن التوراة وإنما تحدث فى الدين من وجهة نظر نفسانية محضة وبمعلومات شديدة العامية. وقد جاء فى سفر صموئيل : وكلّم صموئيل كل بيت إسرائيل قائلا إن كنتم بكل قلوبكم راجعين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من وسطكم وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم من الفلسطينين» (صموئيل الأول ٧:٣).

✠ ✠ ✠

وبعد أيها القارئ ...

أفلا يجعلنا هذا الكتاب نزداد اعتزازا بالتوحيد لأننا أمة التوحيد على الحقيقة واليقين. والتوحيد هو فلسفة المسلمين، والفقه هو منطق المسلمين، والتوحيد والفقه هما رسالتنا إلى العالم وإسهامنا الحضارى الإنسانى كمسلمين. واعتزازنا بالتوحيد والفقه الإسلاميين فيه

كرامتنا القومية وعزّنا فى الدنيا، وفخرنا على العالَمين، ونجاتُنا فى الآخرين. ونحن واليهود فى سباق على عبادة الله الواحد الفرد الصمد الذى لاإله إلا هو الرحمن الرحيم، ومن منا يكون له السبق هو الأعلى. والله تعالى يقول ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (آل عمران ١٣٩). وقد شرط الله ذلك بالإيمان به، وعبادته وحده هى التى تنقذنا من اليهود وتنقذ الفلسطينين منهم أو تنقذهم من الفلسطينيين كما يقول صموئيل. ولقد اعترف فرويد نفسه بالتحريف الذى تناول به اليهود التوراة، وماكان يعنيه أنهم حرّفوا فيها بالزيادة وبالنقصان وبالنقل وبالتغيير - ماكان يعنيه كل ذلك ولكنه كان مهموماً بقضية التوحيد فيقول : إن التوحيد ميّز اليهود عن كافة الأمم وجعلهم يثقون فى أنفسهم وبأن الله قد اختارهم لهذه المهمة المقدسة، وفرض عليهم التوحيد تقدماً فى الروحانية وفتح طريق احترام الآخرين لهم. وهو يقول أيضا : إن الإنسان البدائى كان فى حاجة إلى إله بوصفه خالق العالم والمنعم عليه. والإنسان فى العصور الحالية يتصرف تصرفاً مشابهاً، وسيظل طفلاً يحتاج إلى الحماية حتى يكبر إلى تمام نموه، فإنه يستشعر أنه لايمكن أن يستغنى عن مساعدة الله له. ويقول : ليس من الميسور أن نفهم لماذا كان من الضرورى أن يوجد إله واحد، ولماذا يكون للتقدم من تعدد الآلهه إلى التوحيد كل هذا المعنى الطاغى. والحقيقة أن المؤمن يشترك فى عظمة إلهه، وكلما زادت قوة الإله كلما كانت الحماية التى بوسعه أن يضفيها عليه شيئا مضموناً. ويقول : إن فكرة الإله الواحد لها هذا التأثير الطاغى على البشرية لأنها جزء من الحقيقة التى ظلت مخبوءة كل هذا الوقت الطويل، وكان عليها أن ترى النور آخر الأمر فجرفت كل شئ أمامها. وعلينا أن نقر أنه بالتوحيد قد تحصّل لنا عنصر من عناصر التنظيم يتناسب مع عظمة موضوع التوحيد، ويتناسب مع نجاح تأثيره واقتناع الآخرين به!!

وفرويد فى كتاب موسى والتوحيد يشير إلى نفسه فى أول الكتاب باعتباره يهودياً ويعتذر أنه ماكان ينبغى أن يكتب هذا الذى يقول به عن النبى موسى وهو الذى بشر اليهود بديانتهم - أن يقول عنه ماقاله فى الكتاب. وتقول التوراة إن النبى موسى عليه السلام وُجد فى نحو القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح، وتُجمع كتب الدين اليهودى على أن اسم أبيه هو عمران واسم أمه يوشبيد. وتقول الأسطورة أن ميلاده جاء فى وقت اضطهاد فرعون لأبناء اليهود بسبب النذير الذى حمله الكهنة إليه من أن نهايته ستجئ

على يد أحد هؤلاء الأبناء، ومن ثم تضعه أمه فى سلّة من البوص وتلقيه فى النيل حيث تستحم إبنة فرعون التى تشفق عليه وتتبناه وتسميه موسى. وفرويد له أن يتحدث عن موسى كيفما يشاء، ولنا أيضا أن نرى فى موسى عليه السلام رأياً مخالفاً، فكلانا له دينه ومعتقده، ورأى فرويد هنا يهمنا لأنه رأى المثقفين اليهود فى اليهودية وأصولها الفكرية. ولسوف نرى أن موسى لايهم فرويد بوصفه نبياً بقدر مايهمه كداعية قومية، مثلما يرى الإيطاليون مثلاً فى ماتزينى.

وخطورة هذا الطرح الفرويدى للدين اليهودى أو لأصول الدين - أى دين، هو أنه يستخدم فيه مفاهيم التحليل النفسى. وفرويد من أبوين يهوديين وليس مثل كارل ماركس من أب يهودى وأم مسيحية. وكانت ولادته فى فريبورج بمورافيا فى ٦ مايو سنة ١٨٦٥، وعاش من سن أربع سنوات إلى سن ٨٢ سنة فى فينا، وكان شديد الغرام بالفلسفة والتاريخ، وأحب دارون، وترجم إلى الألمانية أحد أجزاء المجلد الضخم الذى حوى كتابات المفكر الاقتصادى والاجتماعى الإنجليزى الأشهر جون ستيورات مل، وأعجب بالكيمياء ولكنه لم يبرز فيها فتحول عنها إلى الفسيولوجيا والتشريح. ولم يثره الجانب العلاجى للطب، وفضّل عليه جانبه العلمى النظرى. واشتغل لعدد من السنين فى معمل الدكتور فون بروك، ثم التحق بالمصحات النفسية، وتتلمذ على مينرت استاذ تشريح المخ. وقرر الزواج ولم تسعفه ظروفه المالية فترك البحث العلمى ومارس طب الأعصاب، وقرأ أن أحد الفرنسيين ويُدعى جان شاركوه (يهودى أيضا) يقوم ببحوث رائعة على مرض الهستيريا، فارتحل إلى باريس. ولم يتأثر بشاركوه بقدر ماتأثر بجوزيف بروير (يهودى كذلك) الذى قصّ عليه تجربة مثيرة له فى علاج أعراض الهستيريا بالتنويم المغناطيسى حيث يتذكر المريض أسباب مرضه أثناء تنويمه. ونشر فرويد وبروير بحوثهما معا سنة ١٨٩٥، وأطلق على الكتاب «دراسات فى الهستيريا»، وكان هذا الكتاب هو نقطة البداية لما سمى فيما بعد **بعلم التحليل النفسى**.

وطوّر فرويد العلاج بالتنويم فجعله علاجاً يشترط صحو المريض التام ووعيه الكامل، مستخدماً **منهج التداعى الحر**، وساعده ذلك على عزل ودراسة ظاهرة **المقاومة** التى يقاوم بها المريض تجاربه المكبوتة، **وظاهرة تحوّل عواطف المريض إلى الطبيب نفسه**، وظل هذان العنصران منذ ذلك الوقت فكرتين مركزيتين تدور حولهما مناهج العلاج

بالتحليل النفسى. ويعد التحوّل من العلاج بالتنويم إلى العلاج بالتداعى الحر فتحاً تاريخياً حقيقياً، ومنذ سنة ١٨٩٧ بدأ فرويد يجرى تجاربه على نفسه، ويدرس عملياته العقلية اللاشعورية. وهذا المنهج الذى طبقه لايمكن أن يمارسه أى إنسان عادى على نفسه، فهو فى الواقع قاصر على قلة قليلة جداً ويسمى منهج التحليل الذاتى، وهو المنهج الذى تطور فيما بعد وصار يقضى بأن يخضع كل محلل للتحليل من قبل محلل نفسى مجرب. وتترابط فى أعمال فرويد الجوانب الإكلينيكية والنظرية والنفسية، وأدى ذلك إلى تقدم جذرى فى فهم العصاب والحصار (القلق) والانحراف والعقل الطبيعى كذلك. وتتلخص كشوف فرويد فى هذه النقاط :

١- الأثر الدينامى للعمليات اللاشعورية على الشعور والحركة.

٢- الدور المركزى للصراع النفسى فى علم الأمراض، وكذلك فى التطور الطبيعى للأشخاص ونموهم النفسى. وكان التعمق فى فهم الميكانيزمات المختلفة التى يلجأ إليها الفرد والتى يستبعد عن طريقها الميول الغريزية من الشعور والحركة (كما فى الكبت)، أو التى يعدل بها هذه الميول (كما فى التسامى) جزءاً من هذا الدور.

٣- جوانب بناء الشخصية.

٤- القوة الفعلية خلف الدوافع الغريزية (الجنس والعدوان).

٥- وأخص هذه النقاط وجود وأهمية الجنسية الطفلية.

ويعتبر كتاب فرويد **تفسير الأحلام** أول كتاب من الكتب الكلاسيكسة التى كان لها فضل فهم جوانب الشخصية سواء السوية أو المرضية. ونشره فرويد سنة ١٩٠٠، ويعتبره أعظم كتبه. وقفاه فرويد بدراسات شتى فى مختلف الميادين فى علم النفس والأدب والديانات. وهذا الكتاب الذى نقدمه هنا هو آخر كتبه فى تطبيق منهج التحليل النفسى. وتتسم أعمال فرويد بالجرأة الفريدة، فهو قد طرق ميادين لم يدخلها أحد قبله، وظلت ذاكرته وقدرته الإبداعية كما هى حتى وهو مريض بالسرطان الذى داهمه وهو فى السابعة والستين من عمره، مما اضطره إلى استئصال زوره. ونلاحظ أنه كتب موسى والتوحيد وعمره ثمانون عاما، واستخدم فى هذا الكتاب أستاذيته الكاملة فى منهج التحليل النفسى، ووُجه الكتاب بالكثير من النقد، كما أن كشوفه النفسية التحليلية التى استخدمها فيه وُوجهت كذلك بالكثير من النقد، ولم يدهش ذلك فرويد لأنه عرك من العلاج بالتحليل النفسى

مبدأ المقاومة. وكان الاعتراف بالكتاب بطيئاً مثلما كان الاعتراف بمنهجه فى التحليل النفسى بطيئاً. ورغم أنه كان يحمل لقب أستاذ إلا أن جامعات بلاده النمسا لم تمنحه أبدا هذا اللقب، ولم يتسن له فى حياته الباكرة أن ينشر أفكاره بمثل ماتسنّى له ذلك فى أواخر أيامه وهو فى المهجر فى لندن وبتأثير انتقالها إلى الولايات المتحدة الأمريكية معقل اليهودية والصهيونية فى العالم قاطبة.

واشتغل فرويد لمدة عشر سنوات وحده فى ميدان التحليل النفسى، وفى نحو سنة ١٩٠٦ انضم إليه عدد من زملائه الذين قرروا الاجتماع سنة ١٩٠٨ فى أول مؤتمر للتحليل النفسى، وبعده بعامين تأسست الجمعية الدولية للتحليل النفسى.

وتزوج فرويد من اليهودية مارتا بيرناىز سنة ١٨٨٦ وأنجب منها ستة أطفال، كان أصغرهم الطبيبة المشهورة أنّا فرويد التى عُرفت ببحوثها المستفيضة فى علم نفس الأطفال. وفى سنة ١٩٣٨ بعد قيام النازية فى ألمانيا وضمّها للنمسا هرب فرويد إلى لندن ومات هناك فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ بالسرطان. ولعل أوفى الكتب التى تناولت فرويد هو كتاب إرنست جونز "The life and Work of Sigmund Freud" فى ثلاث مجلدات (من سنة ١٩٥٣ إلى ١٩٥٥).

✠ ✠ ✠

ولكن ماهو التحليل النفسى الذى يتردد هنا كثيرا فى هذا الكتاب والذى يعتبر تطبيقا له؟

قلنا إن الطبيب النمسوى جوزيف بروير (١٨٤٢ - ١٩٢٥) اكتشف طريقة فى البحث عن أسباب الهستيريا وذلك من خلال التنويم المغنطيسى، وكان ذلك قبل أن ينشر شاركوه وبيير جانيه الفرنسيان بحوثهما فى أصول الأعراض الهستيرية. واستفاد فرويد من كل تلك البحوث وغير منهج التنويم بمنهج التداعى الحر، وأطلق على العلم الجديد اسم التحليل النفسى، وصار للاسم الجديد على مر الوقت معنيان :

١- أنه منهج خاص لعلاج الاضطرابات العصبية.

٢- أنه علم العمليات النفسية اللاشعورية أو علم نفس الأعماق.

وثبت نجاح التحليل النفسى فى علاج بعض الأمراض النفسية مثل الهستيريا والمخاوف والحصار (القلق). ويستلزم تطبيق هذا المنهج دَرَبة عالية من المحلل. والعلاقة بينه وبين

المريض من أعقد العلاقات الإنسانية، وتتوقف نتائج العلاج على الكشف عن العمليات اللاشعورية ومكوناتها ودفعها إلى شعور ووعى المريض. ولكن خلال ذلك تعترض العملية مقاومات داخلية هائلة فى نفس المريض. ويرى التحليل النفسى الحياة النفسية من ثلاثة جوانب : الجانب الدينامى والجانب الاقتصادى والجانب الطبوغرافى. ويرجع التحليل النفسى إلى الجانب الدينامى من كل العمليات النفسية ويعود بأصولها إلى الغرائز التى تتكون من مجموعتين طبقا لمنهج التحليل النفسى : الغرائز التى تسمى غرائز الأنا وتهدف إلى الحفاظ على الذات، وغرائز الموضوع وتعنى بالعالم الخارجى. وبتحليل هذين النوعين من الغرائز نجد أنهما يخفيان بدورهما غرائز أعمق هى :

١- غريزة الإيروس أو الحب.

٢- غريزة الثاناتوس أو التدمير أو الموت.

وفى التحليل النفسى تسمى قوة الإيروس باسم الليبيدو أو الطاقة الشهوية. ويفترض التحليل النفسى من وجهة النظر الاقتصادية أن الغرائز لها كميات محدودة من الطاقة، وأن الجهاز النفسى من وظيفته منع استنزاف الطاقة والتقليل ماأمكن من المثيرات التى تستنزفها. وينظم هذه العملية بشكل تلقائى مبدأ يسمى **مبدأ اللذة - الألم**. والألم يحدث بزيادة التهيج والاستثارة ومن ثم خفض اللذة. ومع الاستمرار فى الحياة فإن الفرد يطرأ عليه تطور ويتعدل مبدأ اللذة بفعل الواقع فى العالم الخارجى والخبرات التى يكتسبها الفرد منه فيأخذ مكانه مايسمى بمبدأ الواقع، فيتعلم الجهاز النفسى بفعل الاحتكاك بالعالم الخارجى أن يؤجل إشباع لذّاته وأن يسمح أحيانا ولفترة بمشاعر الألم.

ومن الناحية الطبوغرافية ينظر التحليل النفسى إلى الجهاز النفسى على أنه جهاز معقد. وأحدث نظريات التحليل ترى أن الجهاز النفسى يتكون من الهو Id وهو مخزن الدوافع الغريزية، والأنا Ego وهو القشرة السطحية من الهو التى يصيبها التعديل بفعل العالم الخارجى، والأنا الأعلى Super - ego الذى ينمو من الهو ويسيطر على الأنا ويمثل النواهى والزواجر التى من شأنها كبت الغرائز. والعمليات النفسية فى الهو عمليات لاشعورية، بينما الشعور هو وظيفة القشرة العليا من الأنا التى تختص بإدراكات العالم الخارجى.

وهنا ينبغى أن ننوه بملحوظتين :

١- أن هذه الأفكار العامة تماما والافتراضات المسبقة لايقوم عليها التحليل النفسى كأساسيات وإنما هى نتائج مستحدثة وقابلة للمراجعة. أما التحليل النفسى فينهض على ملاحظة الحياة النفسية والعقلية للفرد، ولذلك فإن البنيان النظرى للتحليل النفسى مايزال غير كامل وعرضه للتغيير المستمر.

٢- أنه ليس ثمة ما يدعو للدهشة أن يتحول التحليل النفسى الذى كان أصلا محاولة لتفسير الظواهر النفسية المرضية إلى علم نفس للحياة النفسية السوية. ولعل سبب ذلك اكتشاف أن الأحلام وسقَطَات اللسان التى يتردى فيها الأسوياء من الناس تتبع نفس الوسائل الميكانيكية التى تتبعها الأعراض العصابية.

ويقوم الجانب النظرى للتحليل النفسى على الإقرار بثلاث مسائل :

١- الاعتراف بالكبت.

٢- والاعتراف بأهمية الغرائز الجنسية.

٣- والاعتراف بالتحوّل.

وهناك قوة فى النفس تمارس عمل الرقيب وتستبعد وتكبت كل الرغبات التى بتحقيقها يحدث الألم، وعندما يحاول المحلل النفسى دفعها من الأعماق إلى السطح فيتذكرها المريض من جديد فإنه يثير المقاومة. وهذه الرغبات لاتنجح دائما عملية كبتها، ولذلك فهى تظهر كثيراً فى شكل محرّف وتخرج إلى الشعور والوعى عن طريق جانبى وتشكل فى هذه الحالة الأعراض العصابية.

ومنذ فرويد واكتشافه لمنهج التحليل النفسى سنة ١٨٩٥ تأسست له جمعيات فى كل عواصم أوروبا وأمريكا، وظهرت له مجلتان هما إيماجو التى نشرت فصول هذا الكتاب، ومجلة الجورنال الدولى للتحليل النفسى.

وإنى لأسأل القارئ أن يتمهل فى فهمه لهذا الكتاب - موسى والتوحيد - وذلك لأن هذه المفاهيم التى ذكرت بعضها والتى سيذكر بعضها الآخر فرويد فى أجزاء هذا الكتاب على قدر كبير من التعقيد. وفرويد فى عرضها يحاول أن يستميل بها القارئ ويقنعه بوجهة نظره التى تبدو فى أول الأمر كما لو كانت موضوعية وعلمية، حتى إذا استماله إلى قراءة الكتاب وبلغ فيه إلى منتهاه سيجد أنه استُدرج إلى الاقتناع بوجهة نظر ضد الكثير من معتقداته. وتذكرنى طريقة فرويد بماكانت الباطنية أو دعاتها يفعلونه لتحييد المستمع أو

القارئ لهم واستدراجه ثم إعادة تعليمه حتى كانوا يسمون بالتعليمية. وفرويد فى هذا الكتاب تعليمى ويلتمس من القارئ - تماما مثل الباطنية - أن لاينفعل، ثم يشعل حدسه ويذكى خواطره، ويجتهد فى تأنيسه بالكلام الرقيق والمواعظ اللطيفة، ويردف ذلك بالطعن فى الأديان والتشكيك فيها. ويستخدم طريقة التعليق بأن يترك القارئ بين الدهشة والانبهار والحيرة، ويهوّل فى الأمور، ثم يربطه بالنتائج التى يستدرجه إليها ويُدلس عليه بذكر النظريات والكشوف العلمية ويحتال لإبطال تشدده الدينى، ويظهر له فى الكثير من النقاط أنه لايخالفه، ويبدو له كما لو أنه سيختصه بسر من الأسرار، ويواطئه على مقدمات يتسلمها منه مقبولة الظاهر مشهورة وذائعة عند الناس وعامة المؤمنين، وأخيرا يكون الاستدراج النهائى إلى النتيجة التى يريدها وهى أن شعب اليهود هو أعظم الشعوب قاطبة وأرقاها وأسماها ديناً ومعتقداً. ولذلك فقد حاولت جهدى أن أنبه القارئ إلى مايرُاد به من آن لآخر، وأشرح بالهوامش ماورد فى النص من مستغلق الألفاظ وميْزتُها عن هوامش فرويد بكتابة اسمى عليها.

والله أسأل أن أكون قد وُفقت،

عبد المنعم الحفنى